الإيمان والدين والاعتقاد

الأب غابي هاشم

يتضمّن هذا البحث المتواضع محاولةً لتعريف الدين والإيمان والوحي والاعتقاد والسلوك الديني من خلال العلاقة التي تربط هذه الأمور بعضها ببعض، وطرحًا لبعض التساؤلات حول الدين وغايته وفوائده، وحول التحدّيات التي تترتّب على الدين عمومًا في مجتمع معلمن، وفي ظلّ سلسلةٍ من الاتهامات توجّه إلى الظاهرة الدينيّة بتزكية التعصّب، وروح الانغلاق والعنف الذي قد يصل إلى الإرهاب. وقد وضعتُه في إطار مساعي المسيحيّة والإسلام للولوج في عمليّة حوارٍ رصين بينهما، ومع الديانات الأخرى والحركة العلمانيّة، تحدوني رغبةٌ صادقة بعدم الخوض في أمور جدليّة، بل باستجلاء ما قد يسهم في تعزيز الفكر اللاهوتيّ المعاصر في خدمة الأديان والبشريّة معًا. وقد تبيّن لي أن الأمر غير سهلٍ على الإطلاق، ولا سيّما وأنني غير ملمّ بشكلٍ وافٍ بعقيدة الدين الإسلاميّ ونظامه اللاهوتيّ. وأنا أقرّ بأنّ بحثي ليس مستوفيًا لشروط التطرّق الوافي لهذه المسائل. ولكني أظنّ أن لا شيء خطير يحول دون طرح هذه الخواطر والأفكار على بساط البحث ضمن هذه الحلقة البحثيّة، لا سيّما وأنّي لا أدّعي البتّة صوابيّتها المطلقة.

بناءً على ما تقدّم، عمدت إلى تقسيم البحث إلى قسمين :

في القسم الأول أتعرّض لمضمون بعض المفردات وللمعنى التي ترد فيه في سياق البحث بشأن الإيمان، والدين، والوحي، والاعتقاد، والسلوك الديني، وأما القسم الثاني، فقد خصّصته لطرح بعض التساؤلات والخواطر.

1 – بين الإيمان والدين والوحي والاعتقاد والسلوك الدينيّ

الإيمان: على الرغم من أنني لست أدري حقًّا إن كان الإسلام يميّز بين الإيمان والدين، أو لا يميّز بينهما[1]، أبدأ بشرح كلّ من هاتين المفردتين: الدين والإيمان، بحسبما يتراءى لي، وإلى تبيان الفرق بينهما كما أردته في هذا البحث.

---

[1] ورد في برنامج "الحلقات البحثيّة" لصيف 2005 في معهد المعارف الحكميّة، في الصفحة 17: لما كان الدين هو إقرارٌ بحضور الله وعمله في الكون والبشر، والإنسان كائنٌ يقوم على وحدة الروح والجسد، لذلك لا يمكن أن يبقى الموقف الباطني للإنسان بعيدًا عن الإقرار، أي دون تعبير خارجيّ محسوس، وإلّا تعرّض للتلاشي والغياب.

الإيمان وقد يعني الفعل (أومن) أو مضمونه (ما أومن به). وهذا الإيمان، غالبًا ما يُسند مصدرُه في الأنظمة الدينيّة إلى النعمة الإلهيّة، كما في المسيحيّة على سبيل المثال لا الحصر. إذ يكفي أن أذكّر بالنقاشات الحادّة التي طالت في القرن السادس عشر؛ أي زمن الدعوة إلى الإصلاح، مسألة علاقة الإيمان بالنعمة وبالحريّة. ومن هنا تجد مبرّرَها، العلاقةُ الوثيقة بين الإيمان والوحي من جهة، بمعنى أنني حظيت بنعمة الإيمان وأهميّةِ فعل الإيمان الذي هو أيضًا جوابٌ بشريّ حرّ ومسؤول على المبادرة الإلهيّة من جهةٍ أخرى.

ولذا يصرّ الكثير من المفكّرين، ولا سيّما من الغربيّين، على التأكيد أنّ الإيمان مغامرةٌ وثقةٌ وأيمانٌ والتزام. وقد عرّف صاحب التقديم لهذه الحلقة البحثيّة الدين بحسب النظرة الإسلاميّة بقوله : الدين بحسب النظرة الإسلاميّة يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، وهو وضعٌ إلهيّ، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول[2].

وبحسب هذا التعريف، يكون الدين موقف العقل من رسالة الله الموحى بها والمنقولة بالرسول.

وقد يكون هذا التشديد على الوحي وقبوله بالعقل والتزام موقفٍ شخصيّ ووجوديّ منه، من الأسباب الكبرى التي أدّت إلى انحسار البحث، في عصر الحداثة وما بعده، عن براهين وجود الله، وإلى التغاضي عن الاستفاضة في شرح الأدلّة البيّنة لهذا الوجود. ولا ريب في أن مثل هذا الموقف أسهم ولا يزال في تعزيز النزعة إلى حصر الإيمان بالأمور الخاصّة بالشخص كما يدّعي تيار العلمنيّة الداعي إلى فصل الشؤون الروحيّة والانتماءات الدينيّة عن قضايا المجتمع وأنظمته، وعن السياسة وشجونها، بحجّة أنها تفرّق بين الإنسان والإنسان، وتزيد من العصبيّة الدينيّة. وغنيّ عن القول أن الأديان على وجه العموم، لا ترضى بهذا الاتهام، بل تسعى إلى محاربة هذا الموقف العلمنيّ والحدّ من انتشاره قدر المستطاع.

الوحي: أو بعبارةٍ أخرى **المبادرة الإلهيّة**، هو كشف الله عن سرّه أو ما يريد أن يبلّغه إلى الإنسان. وتتفق المسيحيّة والإسلام على الإقرار بالأولويّة المطلقة لله في ملاقاة الإنسان. وثمّة في أساس كلّ الديانات وحي؛ أي "رسالةٌ سماويّة"، "كتابٌ مقدّس"، "كلمة"، تتضمّن فحوى الكشف وربّما ما يتوجّب على المؤمن أن يقوم به؛ ليستجيب الاستجابة اللائقة والصحيحة لهذه المبادرة الإلهيّة. الوحي إذن " الصورة المثلى للإفصاح عمّا تتضمّنه المبادرة الإلهيّة... ومضمونه، بمعزلٍ عن كيفيّة تجلّيه وسبل اختباره واعتناقه، هو الذي يشتمل على حقيقة الكيان

---

[2] انظر في البرنامج، في الصفحة 14.

والإنسان والوجود وينهج الخلاص للإنسانيّة، على اختلاف معنى الخلاص في الأديان، راسمًا لبني البشر شرائع المعاملات العامّة وسنن المسلك الأساسيّة[3].

الوحي نعمةٌ أو هبة مجّانيّة من الله. لكن في حين يؤمن المسيحيّون بأن اعتلان يسوع الناصريّ مسيحًا وربًّا كما ورد في الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد، وفي التقليد المقدّس، هو اكتمال الوحي الإلهيّ، يؤكّد المسلمون على أن الرسول محمّد هو خاتمة الأنبياء جميعًا، وأن الدين الحقّ عند الله هو الإسلام. وهذا التأكيد من كلا الجانبين (وكما هو الأمر في الديانات الأخرى)، على صلةٍ وطيدةٍ بمسألتي الحقيقة والخلاص، وينجم عنه ادّعاء كلّ ديانةٍ بحيازتهما منفردةً ودون سواها من الأديان الأخرى (حقيقة الإقصاء). واعتلان الوحي يختلف في الديانتين من حيث الأسلوب؛ إذ تؤكّد المسيحيّة على الكشف بالمداناة؛ أي بالتجسّد، ويصرّ الإسلام على تعالي المصدر وبقائه متساميًا. ومن الجليّ أن انعكاس هذين الموقفين على فهم الدين وممارسته خطيرٌ وبالغ الأهميّة، فالمسلم يُسلِم أمره لهذه المبادرة إسلامًا واثقًا كاملًا بيّنًا، بينما يميل المسيحيّ إلى استقبالها من خلال استقلاليّة كيانه، والتفاعل معها تفاعل الكائن الحرّ.

والوحي في غالب الأحيان، يغدو منذ نشوء الديانة في التاريخ، المصدر والمرجع الثابت للعقيدة والممارسة، وسائر مظاهر العبادة و شعائرها، والسلوكيّات الأخلاقيّة؛ أي مقياسًا لصحّة قبول الكشف الإلهي. وأصدق برهانٍ على هذا الأمر في المسيحيّة قول الكنائس الإنجيليّة والمذاهب المصلَحة، بصدارة الكلمة وكفايتها ("الكتاب وحده sola scriptura")، وعودة الكنيسة الكاثوليكيّة بعد المجمع الفاتيكاني الثاني إلى بناء عمارتها اللاهوتيّة انطلاقًا من الكتاب المقدس، وتمسّك الكنائس الأرثوذكسيّة بتراث الآباء، المبني على تفسير كلمة الله وشرحها. أمّا في الإسلام، فالقرآن الكريم هو الوحي المدّون بكامله، لا يُمسّ، وهو مضمون الليتورجيا وأساس اللاهوت.

ومضمون الوحي يختلف في الإسلام والمسيحيّة. إنه في الإسلام تبليغٌ للمشيئة الإلهيّة والشريعة والناموس. أما في المسيحيّة، فالوحي يكشف عن سرّ الله وكيانه، بتجلّيه للبشر ومماثلتهم، من حيث الطبيعة، في كلّ شيءٍ ما خلا الخطيئة. وبقولٍ آخر، هو في الإسلام طاعةٌ وجزاء، وفي المسيحيّة شراكةٌ كيانيّة وعهدٌ أبديّ. ولهذا التباين في مضمون الوحي انعكاس على العقائد والبنى والنظم والشرائع، يُظهر فرادتها وتمايزها وخصوصيّتها في كلّ من الديانتين.

---

[3] مشير باسيل عون، **بين المسيحيّة والإسلام**، بحثٌ في المفاهيم الأساسيّة، (بيروت: 1997)، الصفحة 22.

يعتبر الإسلام الوحي كما دوّن ملكًا لله وحده، ويُبقي التأويل محصورًا في دائرة المشيئة الإلهيّة، مكتفيًا بمحاولات التفسير البشريّة التي تسعى في ما تسعى إليه، إلى نزع اللبس والإبهام عن أذهان المؤمنين الذين يودّون الاستنارة بالنصّ القرآني؛ للسير بإرشاداته والبقاء في إطار المعتقد الصحيح. أما الوحي المدوَّن في المسيحيّة فهو خلاصة تفاعل الكشف الإلهي والخبرة الإيمانيّة، ولا سيّما تلك التي عرفتها الجماعة الأولى قبل عمليّة التدوين، وتثبيت قانون الأسفار المقدّسة في أواخر القرن الثاني الميلادي. وباب التأويل في المسيحيّة مفتوحٌ على مصراعيه ويتسبّب في خلافاتٍ بين المدارس التأويليّة المختلفة وبين القراءات المتنوّعة وبين الكنائس، سواء أقبلت بالتأويل أم حذّرت من أخطاره[4]. والكنيسة الكاثوليكيّة ثبّتت في المجمع الفاتيكاني الثاني في الدستور العقيدي في الوحي الإلهي الوحدة العضويّة والحيويّة، التي تربط بين الكتاب المقدس والتقليد كمصدرين للوحي في المسيحيّة[5] وهي تلتقي في موقفها هذا مع التراث الشرقي الأرثوذكسي على وجه العموم. ولن أدخل في هذا المجال، في سرد أنواع الوحي (الطبيعيّ والنبويّ والذاتيّ...).

الدين: يعرّف دوركهايم الدين على أنّه "نظام متماسك لاعتقادات croyances وسلوكيّات pratiques تتصل بالأمور المقدّسة eséchoses sacr". ولا شكّ في أن هذا التعريف، على الرغم من الموقف المبدئي لصاحبه من الدين، يعبّر بصورة واضحة عن مدلول مجتمعي للدين؛ أي بصفته مجموعة المعتقدات، والشعائر العباديّة، والقواعد الأخلاقيّة والشرعيّة، والمؤسسات التي تحتويها ديانةٌ ما. وقد قرأت مليًّا ما ورد في برنامج الحلقة في الصفحة 14 فوجدت أولًا أن الدين معرّف من جهة الله؛ أي أقرب إلى مفهوم الوحي الإلهي منه إلى التعريف الدوركهايمي، وثانيا معرّف بحسب الطباطبائي: الدين هو سلوك في الحياة الدنيا، يتضمّن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي والحياة الدائمة الحقيقيّة عند الله سبحانه... وغنيّ عن القول أن هذا التعريف ينطلق من مثل التعريف الدوركهايمي، ولكنّه لا يخرج من إطار الإيمان، إذ يربط سلوك المؤمن بالصلاح (الطاعة من خلال التمييز بين الخير والشرّ واتّباع الهدى) وبالآخرة أو الجزاء. وهكذا يمسي الدين الإلهي الحنيف قيّمًا على المجتمع الإنساني...، سنّة الحياة؛ والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته، فلا غاية للإنسان

---

[4] الكاثوليك عمومًا يحصرون صلاحيّة التأويل الصحيح بالسلطة على ضوء التقليد؛ الأرثوذكسيّون يحصرونه بالتقليد الآبائي والكنسيّ؛ أما الإنجيليّون فيعزون صلاحيّته إلى كلّ مؤمن.

[5] راجع الأرقام 9 إلى 12 من هذا الدستور.

يتبعها إلاّ السعادة، على الرغم من الاختلاف الطبيعيّ بين البشر. وأظنّ أن هذا التعريف يتلاقى والنظرة المسيحيّة إلى الدين؛ كعلاقةٍ بين الله والإنسان تعتلن بمعتقداتٍ وبممارسة طقوسٍ تستجيب لمستلزمات الوحي والإيمان.

لا ريب في أن تعريف الدين على هذا النحو يطرح التساؤلات التالية : هل يمكن للإنسان أن يكون مؤمنًا من غير أن يكون متديّنًا، أو أن يكون متديّنًا على طريقته الخاصّة، يختار ما يشاء من الاعتقادات والطقوس، ويرذل ما لا يشاء؟ فهل يقتصر الدين على ممارسة الطقوس والشعائر؟ وإن كان على جميع المؤمنين ممارسة دينهم بالطريقة عينها فأين تكمن مضامير فرادة البعد الإيمانيّ الشخصيّ وحميميّته؟ وهل تتناقض هاتان الميزتان أم تتوافقان مع البعد الجماعيّ الأمّي (نسبةً إلى الأمّة) الكنسيّ (بمعنى الجماعة)؟ وما هي الأطر التي تحدّد أوترسم مساحة كلّ من هذين البعدين؟

ويرد إلى فكرنا في سياق التعريف بالدين كما أعلاه ضرورة التطرّق إلى علاقته بالعادات والتقاليد المجتمعيّة المحليّة، وبنوعٍ خاص تلك التي تنشأُ فيها ديانةٌ ما، ولا سيّما لجهة تثبيت هذه العوائد والتقاليد، ومدى شموليّتها من حيث الزمان والمكان، ومقدار ارتباطها بالبعد الروحيّ العميق. ليس من شكّ بأن الارتباط بين الدين والحالة المجتمعيّة أمرٌ ثابتٌ، ولا أحد ينكره، ولكن الأمر الصعب هو في الحكم على دور الدين في تطوّر المجتمعات، وإسهامه في تقدّم البشريّة ونشوء الحضارات واختلافها، وتحقيق سعادة الشخص. وهنا يصلُح التلميح إلى الفطرة الدينيّة والتساؤل حول قوّة انغراسها في الكيان الإنسانيّ وطرق التعبير عنها، وحول التديّن كظاهرةٍ اجتماعيّة قد ترتبط بروابط عصبيّة هي غير الروابط الأخويّة الصحيحة، أو على الأقلّ تسهم في إنشائها... كلّ هذا في إطار العلاقات التاريخيّة بين الأديان والسعي القائم إلى استجلاء مستقبل هذه العلاقات مع ما يشوبها من تأثيراتٍ لعوامل سياسيّة بحتة واقتصاديّة وحضاريّة. والأمور الجيّدة المتأتية من الدين في هذه المضامير لا تستطيع مهما تعاظمت من إخفاء معالم أخطاء فادحة ارتكبت في الماضي ولا تزال في هذا المجال، يصعب تعدادُها أو الولوج في دراسة أسبابها ونتائجها في بحثنا المتواضع هذا (أكتفي بالتلميح إلى فهم مسألة الجهاد أو الشهادة).

الاعتقاد : يعتبر المنهج اللاهوتي المعاصر الاعتقاد بمعنى العقيدة مضمونًا معرفيًّا، ينبثق من تفاعل المبادرة الإلهيّة والجواب البشريّ في تضاعيف التاريخ. والعقيدة في عرف الإسلام ملتحمة بمبادرة الوحي الإلهيّة التحامًا كيانيًّا نهائيًّا. أمّا في المسيحيّة،فالاختبار الشخصيّ والجماعيّ لمبادرة الله المنغلّة في ثنايا الوحي المتجسِّد والمدوَّن، هو في أساس صياغة العقيدة، معنىً ومبنىً، في مضمونها وفي تعبيرها.

إن كانت العقيدة مرادفًا للحقيقة الموحاة بشأن الأمور الخطيرة، يضحي اللاهوت عندها المسعى البشريّ إلى التعبير عنها بالوسائل المتوفّرة والمتاحة. وهذا يعني أن الله هو أجدر من يحقّ له التكلّم عن سرّه. أمّا نحن، فنسعى إلى فقه الحقيقة الإلهيّة بأكثر ما يكون من الأمانة للوحي. وهكذا نقول أن المذاهب المسيحيّة على أنواعها، لها العقيدة نفسها ولكن لكلّ من هذه المذاهب مسعاه اللاهوتيّ المتأثّر بحضارة وفكر ولغة وعبقريّة كلّ شعبٍ أو أمّة. والسؤال المطروح على بساط البحث بين الكنائس المسيحيّة هو حول مدى توافق هذه المذاهب اللاهوتيّة وإمكان تجانسها بعضها مع بعض، وحول مدى قبول هذه الجماعات المختلفة بالتنوّع اللاهوتيّ، أو بتعدّد المذاهب اللاهوتيّة. ولا بدّ في هذا السياق، من الإشارة إلى النهج الجديد الذي يُعتمدُ أكثر فأكثر في الحوارات اللاهوتيّة الرسميّة بين الكنائس المسيحيّة، والذي يُبنى على قاعدة القبول بالوحدة ضمن التنوّع أو التعدّديّة. والمقصود بهذه المقولة : الوحدة في الأمور الجوهريّة والأساسيّة، والتنوّع في ما سواها من الشؤون. وأظن أن في الإسلام عقيدةٌ واحدة يعبّر عنها القرآن الكريم، ولكن هنالك مذاهب مختلفة وبالتالي مساعٍ لاهوتيّة متعدّدة، وهذا برأيي أمر طبيعيّ. العقيدة متصلةٌ إذن بالحقيقة الإلهيّة من جهة، وبعوامل بشريّة مختلفة من جهةٍ أخرى.

لم تُرد المسيحيّة في نشأتها أن تحدّد عقيدتها خوفًا من عدم قدرتها الحفاظ على الأمانة، ولكنها وجدت نفسها مضطرّةً إلى فعل ذلك لمحاربة الهرطقات التي ظهرت الواحدة تلو الأخرى بعد القرن الثاني. وفي المسيحيّة كان الاتفاق طوال الألف الأوّل يقضي بعدم تحديد أيّة عقيدةٍ أو تثبيتها، إلا بتوافق الجميع في مجمعٍ مسكونيّ. ولكن الكنيسة الكاثوليكيّة خرقت هذه القاعدة مرّتين في القرنين التاسع عشر والعشرين بتحديد عقيدة العصمة البابويّة في المجمع الفاتيكاني الأول (1870)، وعقيدتين متعلّقتين بالحبل بمريم أم يسوع بلا دنس الخطيئة الأصليّة، وبانتقالها بالنفس والجسد، بعد موتها، إلى السماوات. وهذه العقائد لا تقبل بها الكنائس غير الكاثوليكيّة وهي موضوع خلافٍ وجدلٍ لاهوتيّ كبير.

فإن كان الاعتقاد يُقصَدُ به "مجموعة ما نعتقده "، ألا يجدر بنا التفكير مليًّا بما توصّل إليه المجمع الفاتيكاني الثاني حين أكّد على تراتبيّة الحقائق في القرار بشأن الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة؟ فالعلاقة بين العقيدة والحقيقة وطيدةٌ، ولا يفصل بينهما، برأيي الخاصّ، إلاّ شوائب التعبير البشريّ، سواء لجهة الفكر وقدرته على الولوج إلى أعماق السرّ الإلهيّ، أم لجهة عجز كلّ تعبيرٍ بشريٍّ عن صياغة هذا الفكر في نظام عمارةٍ لاهوتيّة. ففي مثل هذه الحال، لا يسعنا من بعد أن نساوي العقائد بعضها ببعض، وأن نضعها على مقدار واحدٍ من الأهميّة والمعنى. على

سبيل المثال، أسأل إن كان بإمكاننا مثلًا في حالة الاعتقاد المسيحيّ وضع عقيدتي التجسّد وانتقال مريم في مقامٍ واحد؟

السلوك الديني : وأعني بهذا القول ما يترتّب على المؤمن الملتزم بديانةٍ ما التقيّد به من حيث القيم والطقوس لتحقيق غاية الدين والوصول بالإيمان إلى عمق الحياة البشريّة واختبارها الوجدانيّ. ففي المسيحيّة تتحقق الشراكة بين الله والإنسان التي أُقرّت بالتجسّد، من خلال الصلوات وممارسة الأسرار، ولا سيّما الإفخاريستيّا ومن خلال الاحتفال بالأعياد والطقوس التي تواكبها. وجلّ ما يتوخّاه المؤمن من هذه الأمور، الدخول في سرّ المسيح وتحقيقه في الزمن حتى يحلّ الملكوت ويصبح الله كلًّا في الكلّ. وقد نستطيع القول بأن أركان الإسلام الخمسة توازي نوعًا ما هذه الأمور التي في المسيحيّة، وهي تبقى في إطار الطاعة لله (عزّ وجلّ) من أجل تحقيق الصلاح ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سبيل تحقيق الغاية الدينيّة على هذه الأرض ونيل الثواب في الآخرة. ولا ريب في أن تنظيم هذا السلوك الديني قد أصابه التدوين والتشريع والاجتهاد. وأجزاء منه، تقلّ أهميّةً عن غيرها، قد تكون تعرّضت لتأثير بعض العوامل التاريخيّة والحضاريّة والفكريّة. ولا أنوي في هذا المجال الخوض في المسائل الأخلاقيّة؛ أي الحكم على السلوك والتصرّفات انطلاقًا من سلّم قيمٍ أخلاقيّة يحدّد مقاييس الخير والشرّ. ومن الجدير بالتلميح إليه في هذا السياق، موقف الأديان من أمور جوهريّة في الحياة، من مثل الموت والألم والمصير وغاية الحياة، معناها... والذي ينشئ تشريعًا وسلوكًا خاصًّا في التعاطي مع هذه المسائل.

2 – خواطر حول دور الدين (والأديان) والتحدّيات التي يواجهها اليوم

في مستهل هذا الجزء الثاني من البحث، أعود فأشدّد على أن هذه الخواطر نابعةٌ من تساؤلات شخصيّة ومن أسئلةٍ طرحها عليّ طلاّبٌ ومؤمنون في أوروبّا وهنا في مجتمعنا العربيّ، أودّ مشاطرتكم إيّاهًا وإن كنت لم أخضعها للتمحيص الفلسفي واللاهوتيّ الدقيق. وإني أصرّ على التعبير عنها رغبةً في لفت الانتباه إلى التساؤلات والتحدّيات التي تواجه الدين والأديان في الزمن الحاضر.

يتراءى لي أن التحدّي الأكبر الذي يتعرّض له الدين ولا سيّما في المجتمع المعلمن، هو عدم حصر الإيمان في إطار الأديان أو التديّن. فما النفع من التقليل من قيمة المجال الروحيّ الداخلي (أو ما يسمّى بشكلٍ عام: spiritualité)، المشترك بين الناس جميعًا، والذي هو في جوهره يلاقي البحث الفلسفيّ العميق عن معنى الوجود والحياة وعن المستقبل والمصير وعن القيم والأسس، وقد يكون مرادفًا من حيث المضمون لا من حيث

الشكل لمجال البحث الديني أوربّما أفسحَ منه. ولا ضير عندئذٍ بعدم حصر الوحي أو الإلهام في المنفسح الديني، إن شئنا التمييز بين الوحي في إطار الأديان وكشف الله عن سرّه أو مشيئته كشفًا مستمرًا عبر وسائل كثيرة. وهنا يطيب لي أن أصرّح بأنني لا أصدّق وجود إنسان من غير إيمانٍ، من غير ثقةٍ بالحياة والغير، من غير سعيٍ إلى فهم سرّ الوجود، وغيرِ مكترثٍ للبعد المتسامي؛ لأن الوجود لا يفسّر فقط بالوجود. فلا يجد الإنسان كلّ الإجابات على تساؤلاته الداخليّة والوجوديّة في ذاته، بل خارجها. ولا يجوز بعد اليوم البحث عن الله في مدانا البشريّ البحت، بل علينا البحث عنه في مدىً آخر لا يخضع لمنطقنا البشريّ الواقعي. وخلافًا لما قد يعتقده الكثيرون، قد تكون نظرة غير المؤمن بهذا الخصوص في بعض الأحيان أقوى من نظرة المؤمن نفسه من حيث البحث الجذريّ وغير المتساهل عن أجوبةٍ على الأسئلة الفلسفيّة والروحيّة والوجوديّة. وقد لفت انتباهي قولٌ للاهوتي البلجيكيّ أدولف غيشيه في كتابه عن "الله" : أومن لأن ثمّة أناس لا يؤمنون". هذا التذكير بأن أناسًا يعيشون من غير إيمانٍ دينيّ يحثّنا على التساؤل إن كان الدين ضروريًّا وإن كان هنالك فعلًا فطرة دينيّة مشتركةٌ بين جميع الناس. ولكنّه في الوقت عينه يبسط أمام المؤمن منبسط الحريّة الملازِمة لفعل الإيمان؛ أي أن الإيمان، لا يقف عند حدود التناقل المتوارث في أسرةٍ متديّنةٍ، أو بالعصبيّة القبليّة (الطائفيّة)، أو بالانتماء الاجتماعيّ، بل يتعدّاه إلى الفعل الإراديّ الحرّ. وغيشيه يؤكّد في هذا المضمار أن "إيماني هو حرّيتي وأن حريّتي تجد معناها في الإيمان"؛ لذلك يميل الكثير من اللاهوتيّين المسيحيّين اليوم إلى التأكيد على أن الإيمان مساكنٌ للشك، وأن الشك منغلّ في ثنايا الفعل الإيماني. وهذه ربّما قصّة كلّ منّا.

وحده الإقرار بقيمة الفعل الإراديّ الحرّ الملفوف بالشكّ يتيح لنا أن نفهم أن لا ضرورة بعد اليوم للجدليّة الدفاعيّة؛ لأن الإيمان لا بدّ وأن يبقى المجال الأرحب والأهمّ لممارسة الحريّة الشخصيّة، وإن التخلّي عن هذه الدفاعيّة التي ارتدت في كثير من الأوقات، في التاريخ، طابع الدفاع عن الله نفسه بوسائل عنيفة وضاغطة، لشرطٌ أوّل لقبول الآخر في غيريّته، وللتأسيس للعيش المشترك والاحترام المتبادل، وخصوصًا للدخول في عمليّة حوار الأديان وبينها وبين الحضارات والثقافات المختلفة، في عالمنا الحاضر.

وهذا الإقرار يقود في الوقت عينه إلى القبول بقيام الحالة العملنيّة كفصلٍ بين الدين والمجتمع دون التقليل من إسهام الدين في بناء الحياة الإنسانيّة والمجتمعات والحضارات، ودون أن يفضي مثل هذا القبول إلى الاعتراف الكامل بكلّ مبادئ العلمنيّة أو قيمها، بل يبقى هذا الإقرارُ موقفًا إيجابيًّا للتفاعل والتقارب رغبةً في بحثٍ مشترك عن سبل الوصول إلى ما تبتغيه البشريّة والدين؛ أي إلى السعادة المنشودة، إلى إحلال السلام والحقّ والعدالة

والأخوّة... يمكننا قراءة مجال تصويب جوهر الحداثة السلبيّ بجوهر المسيحيّة والإسلام الإيجابي، وتحدّيات تصويب الممارسة التاريخيّة الخاطئة في كلتا الديانتين بجوهر الحداثة الإيجابي في الفصلين السابع والثامن للأب مشير عون في بحثه في المفاهيم الأساسيّة بين المسيحيّة والإسلام[6].

والرهان المعقود على الأديان هو في يومنا الحاضر مؤسَّس على قدرتها على تحقيق الانفتاح الإنسانيّ الشموليّ ممّا يعني التخلّي عن محاربة بعضها البعض وعن اللجوء إلى الوسائل العنيفة في بسط سلطة كلّ منها واعتبار خصوصيّات كلّ منها غنىً روحيًّا وإنسانيًّا شاملًا. فهل تقبل الأديان بتعدّد المساعي إلى الحقيقة وإلى السرّ الإلهيّ مع تمسّك كلّ منها بصوابيّة مسعاه الخاص والوحي الذي وصله، أو بعبارةٍ أخرى، بتكاملها في إطار الدين؟ في هذا المجال يقول الأب مشير عون: " وتجنّبًا لمأزق التعارض بين الإقرار بصحّة الدين المعتنَق والاعتراف، ولو في صورةٍ نسبيّة، بقيمة الدين الآخر وصوابيّة مقولاته ومشروعيّة مرماه وحقّه بالوجود، طفقت الديانتان تستحدثان في منهجهما الفكري أسلوبًا جريئًا في مواجهة هذه المعضلة يعزّز في الوقت عينه المناعة اللاهوتيّة الذاتيّة والانفتاح العادل المتأني الذي تستدعيه استدعاء الضرورة مقولاتهما اللاهوتيّة الخاصّة"[7].

إن قبلت الأديان بمبدأ حقيقة السماحة وتخلّت عن حقيقة الإقصاء، نكون قد خطونا خطوة كبرى في مسيرة البشريّة الروحيّة، وحينئذٍ يقتضي الأمر التحوّل من حالة المنازعة إلى حالة التقابس، والتحوّل في الوسائل المعتمدة لنشر رسالة كلّ من الأديان، وهو أمرٌ واجب، بعيدًا من وسائل الضغط والإكراه؟ فلا أسهل من التكفير ورشق الآخر بشتّى أنواع التهم بدافع الجهل والاستعلاء والتنكّر والعدائيّة. أمّا السعي إلى معرفة الآخر وملاقاته وتثمين قيمه ومسعاه، فغالبًا ما يكون أمرًا صعبًا وعسيرًا.

إن ما أقوله هنا ينصح صريحًا بقبول شرعيّة الحالة التي وصلت إليها بعض التيارات الفلسفيّة والفكريّة، مع التأكيد مرّةً أخرى على عدم ضرورة مجاراتها في كلّ الأمور والقيم. وهذا القبول يفسح في المجال أمام الخوض في غمار التحدّي الثاني القاضي بوجوب أخذ تطوّر المجتمع بعين الاعتبار، والبحث في سبل التعاطي معه ومعالجته لجهة إبلاغ الرسالات السماويّة. وهنا أطرح السؤال حول أهميّة ملاءمة الخطاب الدينيّ واللاهوتيّ للعقل البشريّ والإنسان المعاصر ليكون مفهومًا؛ أي قادرًا على ملاقاة منطق أبناء هذا العصر وهمومهم وبحثهم والإجابة على

---

[6] **بين المسيحيّة والإسلام**، مصدر سابق، الصفحات 93 إلى 102.

[7] المصدر نفسه، الصفحة 83.

تساؤلاتهم إجابةً رصينة لا مستخِفّة. على الدين والأديان أن يثبتوا بالفعل وليس فقط بالقول، أن الإيمان يبني الإنسانيّة وأن فيه بعدٌ أساسيّ من الوجود الإنساني وأنّه ملازمٌ للحالة الإنسانيّة مثل الفكر والحبّ والعمل واللعب وغيرها. فعلى سبيل المثال لا الحصر، تقول المسيحيّة قول السيّد المسيح، بأنّه جاء لتكون الحياةُ للناس أوفر؛ لذلك وفي سبيل تدعيم صدقيّة هذا القول، لا بدّ وأن تبرهن عن جهادها، على مختلف الصعد، وفي مختلف العصور؛ لتكون حياة الناس أفضل وأوفر، وليبقى الإنسان، بغض النظر عن عرقه ولونه ومذهبه وطبقته الاجتماعيّ وانتمائه السياسيّ. ويطيب لي هنا أن أعترف بأن القداسة، والتي لم تكن ولن تكون في يومٍ حكرًا على ديانةٍ أو حضارةٍ، لأصدق شهادة للدين ولأفضل استجابة لنداء الوحي. ولا ريب في أنّها عنصر مشترك يجدر بنا أخذه بعين الاعتبار.

أما التحدّي الثالث فيقوم على رهان التنشئة وتبليغ هذه المكتسبات؛ لتدرك الشرائح المختلفة ولا تبقى محصورةً بالأبحاث الأكاديميّة والمساعي النخبويّة. فكثيرًا ما لا نجرؤ وعن صواب في بعض الأحيان، عن ترداد ما يقال في الحلقات البحثيّة في المجالس الشعبيّة، ولا حتى في كنائس الرعايا أو جوامع القرى. صحيح أنه يلزمنا التقدّم بخطىً ثابتة وبطيئة، وأن الإعداد لنشر لغة الحوار وسبيل التلاقي والتكامل أمرٌ في غاية الخطورة، ولكن يجدر به أن يثنينا عن إصرارنا وشجاعتنا للسير قدمًا حتى بلوغ الهدف المنشود. وهذا يتطلّب التزامًا عميقًا واعتماد لغة تخاطبٍ صادقة ووحيدة تتلافى الازدواجيّة. ويؤسفني بأننا جيمعًا لنا في بعض الأحيان مثل هذه الثنائيّة المرتبطة بوجودنا في حلقةٍ مغلقة من أبناء ديانتنا أو بوجودنا في حضرة أناسٍ من ديانةٍ أخرى... فمتى سنبلغ إلى حالة الثقة الثابتة بأن الآخر شريكٌ كامل ودائم؟

التحدّي الرابع الذي أودّ التوقف عنده هو تحدّي حوار الحياة، إذ لا يمكننا الاكتفاء بالحوار الأكاديميّ النخبويّ فحسب، بل يجب علينا خصوصًا الإفادة من خبرة الحوار الحياتيّ، الذي تعود قصّته بين الأديان الإبراهيميّة الثلاث إلى أكثر من ثلاثة عشر قرنًا في شرقنا الغالي. وعلى الرغم ممّا شاب هذا التعايش من إشكالات، لا يزال يمثّل خبرةً فريدةً قد تفيد الحوار على المستوى العالمي. فنحن عشنا معًا، ولنا تاريخ واحد ومصير واحد ولم نعش كما هي الحال حتى السنوات الأخيرة في الغرب، جنبًا إلى جنبٍ وتجنّبًا بعضنا لبعض (في مخيّمات أو أحياء معزولة ghetto). لا ريب في أن التفاعل بين أدياننا لخبرةٌ فريدةٌ وثمينة علينا أن نحلّلها ونقرأها معًا بعمقٍ ورويّةٍ وصدق، علّها ترشدنا إلى الحكمة المنشودة وإلى تصحيح العلاقات وتدعيمها ضمن الأصول.

هذه بعضٌ من الرهانات ولكنّها في نظري الأهم والأساسيّة، وإن هي تحقّقت أفسحت في المجال أمام التصدّي للرهانات الأخرى. ألا قدّرنا الله عزّ وجلّ على الأمانة لوحيه الإلهيّ وللدين، وأعطانا الشجاعة للمضيّ قدمًا في الحوار بعضنا مع بعض في سبيل مرضاة مشيئته والطاعة لإرادته القدوّسة.